بخش عربی

يوسف حسين بكّار

التعويض النفسي عند بشّار بن برد

« اسبابه و مظاهره »

يقيم علم النفس أهمية كبيرة للصراع النفسي ومظاهره المتعددة التي قد يبتلى المرء بأحدها لسبب أو لآخر ، و أحسب انه لا يضير الدراسات الأدبية و النقدية في شيء أن تفيد من علم النفس اذا ما وجدت تربة مناسبة وجوّاً موائماً، فالعلوم الإنسانية على اختلافها يكمل بعضها بعضا ويعضده في بعض نواحيه أو في نواح شتى.

التعويض*، فيما يرى علماء النفس، تغطية شعور بالنقص للوصول الى الشعور بالتفوق بطريقة من الطرق[1] ؛ لعل من أهمها ـ وهو ما يهمنا هنا ـ الاستعاضة عن حاسة من الحواس المعروفة بحاسة أخرى ؛ فقد يستعيض المرء مثلاً عن حاسة البصر بحاسة السمع وهكذا دواليك[2] ، وحسب بشار نفسه ان يقول[3] :

بُلِّغتَ عنها شكلاً فأعجبني والسمع يكفيك غيبة البصر

اذا ما شرعنا نبحث عن اسباب التعويض عند بشار ، برزت لنا عوامل ترتبط بالعلة الأم، أعني «عماه» ، وتنشعب عنها ؛ وقد ساعدت كلها على تعميق «عقدة

---

* Self Compensation

١ـ عبد العزيز القوصي : اسس الصحة النفسية ، ص ١٣٩ .

٢ـ مختار حمزة : سيكولوجية المرضى وذوي العاهات ، ص١٢٣ .

٣ـ الاغاني ٣ : ٢٣٣ (دار الثقافة ـ بيروت) .

النقص» عنده ، فراح يحاول بكل الوسائل والسبل تغطيتها بعناصر مغايرة ليثبت تغلبه عليها من ناحية ، وتفوقه من ناحية اخرى .

الآفة الكبرى في حياة بشار وشعوره بالنقص عماه وتكوينه الخلقي ، فقد ولد اعمى فيما يقول هو، ويقول مؤرخو الأدب ايضاً[٤] ، يقول[٥] :

عَميتُ جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظنِّ للعلم موئلا[٦]

ويقول ابو الفرج: «وكان بشار ولد مكفوفاً»[٧] و«ولد بشار اعمى، وهو الأكمه»[٨] كذلك روى ابو عبيدة فيما نقل ابو الفرج[٩] .

اما عن تكوينه الخلقي، فيروى ابو الفرج عن الاصمعي: «كان بشار ضخماً، عظيم الخلق والوجه، مجدوراً طويلاً، جاحظ المقلتين قد تغشّاهما لحم احمر، فكان اقبح الناس عمى . وافظعه منظراً ...»[١٠] ، فليس بعيداً وغريباً أيضاً ان يضرب القدماء المثل بعماه اذ قالوا «كعين بشار بن برد» ، وقال مخلد بن علي السلامي في هجاء ابراهيم بن المدبِّر :

رايتك لا تحب الود الا اذا كان من عَصَب وجلد
ارانى الله «وجهك جاحظياً» وعينك «عين بشار بن برد»[١١]

يضاف الى العاملين السالفين عامل آخر يرتبط باصل بشار واسرته ، فليس من شك في ان «مولويته» وتردده في نسيبه وادعاءه تلك السلسلة الطويلة من النسب التي جاءت كاملة في اول ديوانه والتي اورد ابو الفرج اكثرها في مستهل ترجمة الشاعر،

٤ـ هذا مخالف لما اورده ابن المعتز من ان «بشاراً كان كفيفاً قبل موته بأربعين سنة» (طبقات الشعراء، ص ٢٢) .

٥ـ الاغاني ٣ : ١٣٦ .

٦ـ في رواية اخرى : «معقلا» .

٧ـ الاغاني ٣ : ١٣١ .

٨ـ المصدر السابق ٣ : ١٣٥ .

٩ـ المصدر السابق ٣ : ٢٠٢ .

١٠ـ الاغاني ٣ : ١٣٥ .

١١ـ الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ١٧٩ .

قدتركت كلها آثارها السيئة فى نفسه[١٢] . اما اسرته فلم تكن من الاسر العريقة ذات «الحسب والنسب» باصطلاح ذلك العصر، فوالده كان ـ فيما يذكر الرواة ـ «طياناً حاذقاً بالتطيين»[١٣] .

لقد استغلت هذه العوامل جميعاً اسوا استغلال وابشعه فى حياة بشار وشخصيته ولقى من جرائها صنوف الايذاء والاحتقار والعذاب النفسى . فأما عن «عماه» فما اكثر ماقرع سمعه ترديد لفظة «أعمى» ، وما اكثر ماستغل القوم هذه «العاهة» ؛ ففى «الاغانى» قصص وروايات تدعم هذا ، من مثل قصته مع من مر به يوماً وهو جالس على بابه وحيداً ومعه مخصرة يلعب بها ، وامامه طبق من تفاح واترج ، فاراد الرجل ان يسرق شيئاً منها، فما ان مدّ يده حتى ضربها بشار الذى كاد يكسرها، فقال له : «قطع الله يدك ... ، انت الآن (اعمى) ! فقال : ياحمق ، فاين الحس ؟»[١٤] ؛ وقصته مع النسوة اللائى دخلن عليه ليقول لهن شعراً ينحن به فوجدنه يأكل، فطلب اليهن ان يأكلن معه ، فامتنعن ، فقالت احداهن : «ماعليكن ! هو (اعمى) فكلن من طعامه واشربن من شرابه وخذن شعره»[١٥] ؛ وحكايته مع «حمدان الخرّاط» المصور الذى اتخذله «جاماً» فيها صور طير تطير ، لكن ليس على نحو ما كان يريد بشار الذى قال له بمرارة وأسى : «... ولكن علمت انى أعمى لاابصر شيئاً» ، وتهدده بالهجاء ، لكنه لم يفعل لان الرجل توعده بأن يصوره بهيئته تلك على اقبح وامسخ حال[١٦] .

واستغل هذه الناحية ايضاً نفر من رجالات البصرة الذين ساءهم تصرف بشار وغزله ، فكان سوار بن عبدالله ومالك بن دينار يقولان «ماشىء ادعى لأهل هذه المدينة من اشعار هذا (الأعمى)»[١٧] ، وكان واصل بن عطاء يقول : «ان من اخدع حبائل الشيطان واغواها لكلمات هذا (الأعمى) الملحد...»[١٨].

١٢ـ راجع فى هذا : شخصية بشار ص ٥٩ . والحياة الادبية فى البصرة ص ٥١٣ .

١٣ـ الاغانى ٣ : ١٣١ و ٢٠٢ . ١٤ و ١٥ـ المصدر السابق ٣ : ١٦٣ .

١٦ـ المصدر السابق ٣ : ١٤٧ .

١٧ و ١٨ـ الاغانى ٣ : ١٧٦ .

كذا استغل الشعراء عماه ايضاً ، قال ابو الشمقمق[١٩]:

ان بشار بن برد تيس اعمى فى سفينة

وقال حمّاد عجرد[٢٠] :

لقد ولدت ام «الأكيمه» اعرجا وآخر مقطوع القفا ناقص اليد

وقال صفوان الانصارى يخاطب ام بشار[٢١] :

ولدت «خلداً» و «ذيخاً» فى تشتمه وبعده «خُزَزاً» يشتد فى العَضَد[٢٢]

واما عن تكوينه الخلقى وبشاعة منظره فأوذى بسببهما كثيراً ايضاً، اذ شبّه بـ «الجاموس» ونعت بالكذب لقوله[٢٣] :

فى حُلّتى جسم فتى ناحل لو هَبَّت الريح به طاحا

وقيل له بسبب هذا البيت ايضاً «اتقول هذا وانت كانك فيل، عرضك اكثر من طولك ؟»[٢٤] .

لقد كان الناس يتطاولون عليه ويتطفلون رغبة فى ايذائه وجرح مشاعره وخدش احاسيسه ، فأية اهانة اكثر مما يروى عن «العكلى» الذى قال لبشار : «... فاخبرنى انت عن امك ، اولدتك أعمى ام عميت بعدما ولدتك؟ قال ــ اى بشار ــ وما تريد الى ذلك ؟ قال : وددت انه فسح لك فى بصرك ساعة لتنظر الى وجهك فى المرآة فعسى ان تمسك عن هجاء الناس وتعرف قدرك ...»[٢٥] ؛ واية اساءة اكبر مما يروى عن امرأة قالت له : «ما ادرى لِمَ يهابك الناس مع قبح وجهك!» فقال لها : «ليس من

١٩ــ الاغانى ٣ : ١٨٩ .

٢٠و٢١ــ مقدمة ديوان بشار ١ : ٨ .

٢٢ــ الخلد : نوع الجرذان يولد اعمى . الذيخ : ذكر الضباع وهو اعرج . الخزز : ذر الارانب وهو قصير اليدين .

هذا البيت اشارة الى بشار واخويه بشر وبشير اللذين كان احدهما اعرج والاخر ناقص اليد .

٢٣ــ الاغانى ٣ : ٢٠٩ .

٢٤ــ الاغانى ٣ : ٢٢٨ .

٢٥ــ المصدر السابق ٣ : ١٦٦ .

حسنه يهاب الأسد»[٢٦] .

كماان بشاراً لم يسلم من تعيير الشعراء له بأسرته ووالده، قال حمادعجرد[٢٧]:

ولريح الخنزير اهون من ريحك يا ابن الطيّان ذى التّبيان[٢٨]

اذن ما أصدق قول الدكتور محمد النويهى: «ان بشاراً قد اساء الى اكثر مما اساء اليه غيره، وانه لو لقى معاملة خيراً مما لقى لتغيرت شخصيته تماماً، فالحقيقة... ان بشاراً ظل طول حياته ــ منذ صباه الى مماته ــ مضطهداً، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان»[٢٩] .

بازاء كل تلك المضايقات التى كانت تمس بشاراً فى شخصيته، وتنال منه فى عاهته وخلقه، ضاق الرجل بالناس ذرعاً، وازداد تبرماً وسخطاً حتى روى انه «كان من اشد الناس تبرماً بالناس»[٣٠] وانه كان «ضيق الصدر»[٣١] الى حد دفعه الى التبرم بنفسه اذ كان يقول: «اللهم انى قد تبرمت بنفسى وبالناس جميعاً، اللهم فأرحنى منهم» وكان يستشهد بالمثل «أينما اتوجه الق سعدا»[٣٢] .

* * *

لم تكن تلك الأسباب والمضايقات والأساءات التى نتجت عنها كافية لتوليد شعور بالنقص فى نفس بشار الذى كره الناس ونفسه التى كان يعزيها مكرها ــ أحياناً ــ فيقول: «الحمد لله الذى ذهب ببصرى... لئلا أرى من ابغض»[٣٣] ؟! فما السبل

٢٦ــ الاغانى ٣ : ١٦٨ .

٢٧ــ المصدر السابق ٣: ١٣١ .

٢٨ــ التبان: سراويل صغير يكون للملاحين والمصارعين .

٢٩ــ شخصية بشار ٣٥ .

٣٠ــ الاغانى ٣ : ١٣٤ .

٣١ــ المصدر السابق ٣ : ٢٠٢ .

٣٢ــ يضرب هذا المثل لمن يلقى سوء المعاشرة فى كل مكان، واصله ان الاضبط بن قريع كان سيد قومه، فرأى منهم جفوة، فرحل عنهم الى آخرين، فرآهم يصنعون بساداتهم مثل ذلك فقال هذا القول .

٣٣ــ الاغانى ٣ : ١٣٤ .

المضادة التى قـدّر للشاعر ان يعوض بها عن عقدة نقصه التى ولدتها عاهته الأولى و تكوينه الخلقى اذاً ؟

من الطريف ان نشير قبل الإجابة عن السؤال المطروح ان من بين القدماء من التفت الى عنصر التعويض هذا ـ لكن فى حدود البصر فقط ـ اذ روى ان رجلاً قال لبشار: «ان الله عزوجل ماسلب احداً كريمتيه الاعوضه عنهما حُسْن صوت، اوذكاء فأنت ماذا عوضك من بصرك ؟ قال : عوضنى فقـدان النظر الى ... مثلك»[٣٤] . اذا ماتركنا هذه الناحية السلبية التى أشار اليها الشاعر نفسه فى حال غضب ونزق نجد انه كان فى مناسبات اخرى يعلل «التعويض» تعليلاً علميا ، فحين قيل له بعدان انشد قوله المعروف :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا واسيافنا ليل تهاوى كـواكبه

«ماقال احد احسن من هذا التشبيه ، فمن اين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها ؟» قال : «ان عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر اليه من الاشياء فيتوفر حسه وتذكو قريحته» وانشد قوله[٣٥] :

اذا ولد المـولود اعمى وجـدته وجـدّك اهدى من بصير واجولا
عميت جنيناً والذكاء مـن العمى فجئت عجيب الظـن للعلم معقلا
وغاض ضياء العين للقلب فاغتدى بقلب اذا ما ضيّع الناس حَصّلا

لكنه على الرغم من هذا لم ينس نعمة البصر وأهمية النظر اذ كان يقول[٣٦] :

هجرت الآنسات وهُنّ عندى كمـاء العين فقـد همـا سواء

وكانت الآلام تعصف به كلما تعرض لهجاء الشعراء الذين كانوا يرونه ولا يراهم، فحين قال حماد عجرد :

واعمى يشبه القـرد اذا مـا عمى القـرد

قال بشار : «والله ما اخطأ ... حين شبّهنى بقرد ... ماحيلتى ؟ يرانى فيشبهنى

٣٤ـ طبقات ابن المعتز ص ٢٢ ، وفى الاغانى (٣ : ١٦١) ان الرجل هو هلال بن عطية الذى كان يعرف بهلال الرأى ، على اختلاف فى الرواية .

٣٥ـ الاغانى ٣ : ١٣٦ والبيت الاول من الديوان (٤ : ١٣٦) مع اختلاف فى البيت الاخير .

٣٦ـ ديوان بشار ١ : ١٠٤ .

ولااراه فاشبهه» وقيل انه بكى لماسمع ذلك الهجاء ، فقيل له : «أتبكى من هجاء حماد ؟ فقال ، والله ماابكى من هجائه ولكن ابكى لانــه يرانى ولااراه ، فيصفنى ولااصفه»[٣٧] .

وعلى اية حال ، فقدكان يجد لنفسه المعاذير محاولاً التعويض عما كان يعيره به الأعداء من «عماه» بخصال وخصائص معنوية ، من مثل قوله[٣٨] :

وعيــرنى الاعــداء والعيب فيهم ... وليس بعــار ان يقــال ضريــر
اذا ابصر المــرء المروءة والتّقى ... فــان عمى العينين ليس يضيــر
رايت العمى اجراً وذخراً وعصمةً ... و انــى الى تــلك الثلاث فقيــر

لم تمر هاتيك الآلام والمضايقات مروراً عابراً فى حياة بشار ونفسيته، بل تركت آثاراً نفسية جمّة مشحونة بالغضب والكره والبرم بالناس والذات ، لكنها لم تقف عند هذا الحد، انما رافقها شعور نقيض، هو شعور بالتفوق والتعالى تعويضاً عما كان يحس به من نقص استغله الناس والخصوم اسوأ استغلال فيما قدمنا ، فما مظاهر هذا التعويض اذاً ؟

اولاً :

الاستعاضة عن البصر بالحس ، وهو مانجد مفاتيحه فى اقوال بشار وشعره ، اذكان يعول على «الحس» كثيراً فى اجاباته لمن كانوا يضايقونه ، ويعلن كلماواتت فرصة عن ان «الذكاء من العمى» وما هو قريب منه فى بعض ماتقــدم من اشعاره واقواله .

هذا المظهر من ابرز مظاهر التعويض عنده وقد التفت اليه الدكتور النويهى من قبل اذ قال فى رده على المرحوم العقاد: «ولست اريد مرة اخرى ان اتهم العقاد فى علمه، فأسوق شعر بشار فى نقل الشعور من احساس الى احساس ، والذى دفع بشاراً الى ذلك هو عماه ، ولذلك كان يترجم مايراه الآخرون الى حاسة السمع ، ويترجم حاسة السمع الى حاسة البصر ، ويترجم هاتين الى حاسة اللمس ، ويضيف اليهما

٣٧ــ الاغانى ١٤ : ٣١٢ .

٣٨ــ ديوان بشار ٤ : ٥١ــ٥٢ .

جميعاً حاسة الشم . فعل ذلك اذ وصف جمال الشَعر وجمال الفناء ، وجمال جسم المراة وجمال حيثها»[٣٩] . لقد عول بشار على «الأذن» و «الفؤاد» وجعلهما بديل «العين» في حبه النساء وتعشقهن :

فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الاذنان الا من القلب

شواهد هذا المظهر كثيرة ، قال[٤٠] :

ياقوم اذني لبعض الحي عاشقة والاذن تعشق قبل العين احياناً
قالوا: بمن لاترى تهذي، فقلت لهم: الأذن كالعين توفي القلب ماكانا

وقال[٤١] :

قالت عقيل بن كعب اذ تعلقها قلبي ، فاضحى به من حبِّها اثر
اني ولم ترها تهذي ! فقلت لهم : ان الفواد يرى مالا يرى البصر

وقال[٤٢] :

يزهدني في حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت: دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذنان الا من القلب

وقال :

ان سليمى والله يكلؤها كالسُّكر تزداده على السُّكر
بُلِّغت عنها شكلا فأعجبني والسمع يكفيك غيبة البصر[٤٣]

ثانياً :

كان يتجاهل ويتناسى انه أعمى في اكثر الاحيان ، فمن يستقصي ماوصل الينا من شعره لايعثر على شيء يشير الى عماه و العمى عموماً سوى ابياته التي اخبر فيها انه عمى وهو جنين ، وسوى قوله[٤٤] :

٣٩- ثقافة الناقد الادبي ، ص ٢١٣ .
٤٠- ديوان بشار ٤ : ٢٠٦ .
٤١ و٤٢- الاغاني ٣ : ٢٣٢ .
٤٣- الشكل : غنج المراة ودلالها .
٤٤- ديوان بشار ٤ : ٣٩ .

والشمس فی کبدالسماء کأنها اعمی تحیر ماله قائد

وقوله[٤٥]:

فاتیتهن مع الجری یقودنی طرباً ، ویالك قائداً ومقودا[٤٦]

وقوله:

اعمی یقود بصیرا لاابالکموا قد ضل من کانت العمیان تهدیه

غیر اننانجدبشاراً وکأنه کان یقصدالی تجاهل عماه تجاهلاً کاملا من ناحیة ، ویأتی بأشیاء یحس قاری، شعره معها انه مع شاعر مبصر من ناحیة اخری . اکثر مایتجلی هذاالمظهر فی غزله الذی یلح فیه علی موضوع «الرؤیة» بکثرة ، من مثل قوله[٤٧]:

وسألت النساء : ابصرن ماابصرت من حسنها ، فقال النساء :

دون وجه البغیض وحشة هول و علی وجه من تحب البهاء

وقوله[٤٨]:

انت التی تشتفی عینی برؤیتها وهنّ عندی کماء غیر مشروب

وقوله[٤٩]:

فلم ترعینی مثلها یوم عطلت سوی حلی خلخال وقرط ومعضد[٥٠]

وقوله[٥١]:

کأن عینی تراها فی مجاسدها اذا رایت رسوم الدار والنادی[٥٢]

٤٥ـ دیوان بشار ٢ : ٣٢٩ .

٤٦ـ الجری : من معانیه ، الوکیل والرسول والخادم والاجیر .

٤٧ـ دیوان بشار : ١١٩ .

٤٨ـ المصدرالسابق ١ : ١٩٦ .

٤٩ـ المصدرالسابق : ٢: ٢٠٨ .

٥٠ـ عطلت : لم تکن علیها حلی . المعضد : حلی یلبس فی العضد .

٥١ـ دیوان بشار ٢ : ٣١٩ .

٥٢ـ المجسد : ثوب کالقمیص تلبسه المرأة .

وقوله[٥٣] :

و فيم انا من عبد ة لولا ما ترجَيَّت
تأنّى نظرى فيها مَليَّاً و تأنيت

وقوله[٥٤] :

ذهبت نظرتى اليك بنفسى ونمى الحب عن فؤادى فباحا[٥٥]
اسلمتنى عينى اليك و قالت : لو تعزى بالصبر منك استراحا

ويسرف بشار فى تجاهل عماه فيقص علينا فى احدى قصائده احداث زيارة له لواحدة من صواحبه ادعى انها هى التى دعته الى زيارتها، فبعد ان تحدث عن اهبته للأمر واخذه زينته ولبسه الجديد له ادعى انه ارتقى اليها فى مشيدة شامخة :

حتى ارتقيت اليها فى مشيَّدة دون السماء تناغى ظلها صَعَدا[٥٦]

فان لم تكن الحادثة من نسج خياله ، فانى له ذلك ؟ الا ان يكون قد درب على هذه الأمور حتى تعودها مثلما هى الحال مع اكثر المكفوفين فى ايامنا هذه .

ثالثاً :

اعتداده بمقدرته الجنسية ، وهو واضح جداً فى شعر بشار واخباره ، فقد كان يفتخر :

لقد كنت فى ظل العذارى مرفلاً احَبّ واعطى حاجتى حيث حلت[٥٧]

وكان يفتخر :

فانى لأغنى مقام الفتى واصبى الفتاة فما تعتصم

فما الداعى - فيما يقول النويهى - الى فخر بشار بأنه يصبى الفتاة فلا تستطيع مقاومة اغرائه ؟ ان هو الا تعويض عظيم عن شعوره بعاهته وتألمه من دمامته[٥٨] .

٥٣- ديوان بشار ٢ : ٢٨ .
٥٤- المصدر السابق ٢ : ١٢٦ .
٥٥- نمى : نقل الحديث .
٥٦- ديوان بشار ٢ : ١٩٥ .
٥٧- المصدر السابق ٢ : ١٠ .
٥٨- شخصية بشار ٦٠ .

وكان يتمادى فى التباهى بمقدرته الجنسية اكثر فاكثر حين كانت النساء تعرض عنه لدمامته وعماه . يروى صاحب الأغانى : «كان النساء المتظرفات يدخلن الى بشار فى كل جمعة يومين ، فيجتمعن عنده ويسمعن من شعره ، فسمع كلام امراة منهن فعلقها قلبه وراسلها يسألها ان تواصله ؛ فقالت لرسوله : واى معنى فيك لى اولك فى وانت اعمى لاترانى فتعرف حسنى ومقداره ، وانت قبيح الوجه فلاحظ لى فيك ! فليت شعرى لأى شىء تطلب وصال مثلى ! وجعلت تهزأبه فى المخاطبة ...» .ولما ادى الرسول الرسالة غضب بشار واعاده اليها بثلاثة ابيات ـ نمسك عن ذكرها ـ يعتدفيها اعتداداً فاضحاً بمقدرته الجنسية اكثر من اى شخص آخر[٥٩] .

رابعاً :

الوصف والصورة الشعرية :

ليس التوصيف وايراد الصور الشعرية الجيدة بسهل حتى على المبصرين من الشعراء المبدعين، لكن بشاراً بالغ فيهما شأواً بعيداً، حمل احدى صاحباته على التعجب والاستغراب فيما يخبر هو نفسه :

عجبت فطمة من نعتى لها هل يجيد النعت مكفوف البصر؟

كان بشار اكثر شعراء القرن الثانى الهجرى وصفاً لمفاتن صواحبه واجسادهن وكأنه «مبصر» يصف كل ماتقع عليه عيناه ؛ هذه الاوصاف تطالعنا مجموعة اومتفرقه فى ثنايا قصائده الغزلية ومقدمات قصائده الاخرى[٦٠] . فضلاً عن هذا ، فان ملابس المراة و ادوات تزينها المختلفة لم يفصل فيها شاعر من شعراء القرن الثانى مثلما فصل بشار الذى يمكن ان يعد صنيعه هذا استمراراً لصنيع عمر بن ابى ربيعة من قبل[٦١] .

اما الصورة الشعرية فاحسب انه قد فاق المبصرين فى اكثرها ، فمثلما اثبت ان ليس الشاعر المبصر وحده الذى يجيد فن الغزل ويبدع فيه ، اثبت فى مجال

٥٩ـ الاغانى ٣ : ١٩٦ وثمار القلوب ١٧٩ .

٦٠ـ راجع كتابى : اتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى ١٥٢ ـ ١٥٤ وانظر على سبيل المثال ديوان بشار ١ : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ وغيرها .

٦١ـ اتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى ١٨٢ ـ ١٨٦ .

الصورة الشعرية ان الأعمى لايحرمه عماه ملكة الخيال[۶۲] ، بل ان ملكته هو كادت تفوق ملكات المبصرين فى هذه الناحية .

لبشار صور كثيره تعكسها تشبيهاته واستعاراته وغيرها من ضروب «البيان» الأخرى ، غير ان اياً منها لم يثر اهتمام النقاد قدامى ومحدثين ما اثارته الصورة الرائعة التى يجسدها التشبيه التمثيلى فى قوله الذائع :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا و اسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فقد استكثر القدامى على الشاعر هذه الصورة ، اذ قيل له باستغراب : «ما قال احد أحسن من هذا التشبيه ، فمن اين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها ؟!» ؛ ومما قيل فيه ايضاً «وهذا اعمى اكمه ، لم ير هذا بعينه قط ، فشبهه حدساً فاحسن واجمل»[۶۳] .

اما عبدالقاهر الجرجانى ، فعلل اعجابه بالصورة حين وازن بينها وبين صورتين اخريين ، احداهما لعمرو بن كلثوم :

تبنى سنابكها من فوق أرؤسهم سقفاً كواكبه البيض المباتير[۶۴]

والاخرى للمتنبى :

يزور الاعادى فى سماء عجاجة اسنته فى جانبيها الكواكب

بقوله : «التفصيل فى الابيات الثلاثة كأنه شىء واحد ، لان كل واحد منهم يشبه لمعان السيوف فى الغبار بالكواكب فى الليل ، الا انك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأثير فى النفس ما لايقل مقداره ، ولايمكن انكاره ، وذلك لانه راعى مالم يراعه غيره ، وهو ان جعل الكواكب تهاوى فأتم التشبيه ، و عبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الاغماد وهى تعلو وترسب ، وتجىء وتذهب ، ولم

۶۲ـ راجع ايضاً : شخصية بشار ۴۰ـ۴۱ .

۶۳ـ الصولى ، اخبار ابى تمام ص۱۸ . من المفيد ان نثبت هنا رأياً للدكتور عبدالله الطيب المجذوب فى صور بشار ، يقول : «... على انى ارى ان ابا العلاء المعرى لم يذهب فى تشبيهاته مذهب بشار من محاولة التفوق على المبصرين فى نعت المنظورات ...» (المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها ۲۴۲:۱).

۶۴ـ السنابك : مفردها سنبك ، وسنبك السيف : طرف حليته .

يقتصر على ان يريك لمعانها في اثناء العجاجة كما فعل الآخران، و كان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة التي تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل ...»[٦٥] .

خامساً :

الاعتداد بالتفوق اللغوي :

كانت ثقافة بشار – في حدود عصره و فيما يعكسها شعره – واسعة جداً ؛ ففي شعره حتى الفزلى منه اشارات كثيرة و افادات عديدة من القرآن الكريم والحديث الشريف والامثال و التاريخ و غيرها ، غير ان اعتداده بمقدرته اللغوية فاق كل اعتداد، اذكان يتباهى : «... ومن اين يأتيني الخطأ ، ولدت هاهنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم احد يعرف كلمة من الخطأ ، وان دخلت الى نسائهم ، فنساؤهم افصح منهم ، وايفعت فأبديت الى ان ادركت ، فمن اين يأتيني الخطأ»[٦٦] .

هذا الاعتداد ، وان يكن مظهراً آخر من مظاهر التعويض ، ليس صحيحاً كله ، فعلى الرغم من مقدرة الشاعر اللغوية ، ففي شعره ما يتنافى مع ادعائه ، فقد اخذ عليه نفر من القدامى والمصاصرين من مثل سيبويه – اوالأخفش – ، وابي هلال العسكري والطاهر بن عاشور وصاحب هذا المقال عدداً من المآخذ اللغوية التي خرج فيها عن مألوف اللغة وفصيح استعمالها[٦٧] .

٦٥– اسرار البلاغة ١٥٢ .

٦٦– الاغاني ٣ : ١٦٢ .

٦٧– يراجع تفصيل هذا في مقالي : «بشار بن برد واللغة» . مجلة الاخاء الايرانية. السنة ١٠ . العدد ١٧٩ . ايلول ١٩٧٠ م .

اهم المصادر والمراجع

١- احمد كمال زكي (الدكتور) :

الحياة الأدبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني الهجري . الطبعة الأولى. دمشق ١٩٦١ م .

٢- الاصفهاني ، ابو الفرج :

الاغاني (الجزء الثالث والرابع عشر) . دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٥ م .

٣- بشار بن برد :

ديوان بشار بن برد . تحقيق محمد الطاهر بن عاشور . مطبعة لجنة التأليف و الترجمه والنشر . القاهرة .

(الجزء الاول ١٩٥٠ ، الجزء الثاني ١٩٥٦ ، الجزء الثالث ١٩٥٧ ، الجزء الرابع «جمع» ١٩٦٦ م) .

٤- بكار ، يوسف (الدكتور) :

١ - اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري . دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١م .

٢- بشار بن برد واللغة (مقال) . مجلة الاخاء الايرانية ، السنة ١٠ ، العدد ١٧٩ ايلول ١٩٧٠ م .

٥- الثعالبي ، ابو منصور :

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب . القاهرة ١٩٠٨ م.

٦- الجرجاني ، عبد القاهر :

اسرار البلاغة (طبعة رشيد رضا) .

٧- حمزة ، مختار (الدكتور) :

سيكولوجية المرضى وذوي العاهات . الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ م .

٨- الصولي ، ابو بكر :

اخبارابی‌تمام. تحقیق محمودعساکروزمیلیه. مطبعةلجنةالتألیف والترجمه والنشر ، القاهرة ١٩٣٧ م .

٩ــ القوصی ، عبدالعزیز (الدکتور) :

اسس‌الصحةالنفسیة . مکتبةنهضةمصر ، الطبعة الرابعه ١٩٥٢ م .

١٠ــ ابن‌المعتز ، عبدالله :

طبقات‌الشعراءالمحدثین . تحقیق‌عبدالستاراحمدفرّاج ، دارالمعارف بمصر ١٩٥٦ م .

١١ــ النویهی ، محمد (الدکتور) :

١ــ ثقافةالناقدالادبی . مطبعةلجنةالتألیف والترجمه والنشر ، الطبعة الأولی‌القاهرة ١٩٤٩ .

٢ــ شخصیةبشار . مکتبةالنهضةالمصریة ، الطبعةالاولی ١٩٥١ م .